الدرس الثامن

تعليل الانقسام في توحيد الصفات

obeikandl.com

obeikandl.com

تعليل انقسام العلماء إلى فئات في الأسماء والصفات

إن نظرة فاحصة حول ما كان عليه حال العرب في الجاهلية، وما صار إليه في الإسلام لتقود إلى معرفة علة الانقسام حيال آيات الصفات، فنقول وبالله التوفيق:

حالة العرب قبل الإسلام:

كان العرب قبل الإسلام قبائل متعددة لكل قبيلة منها زعيم، ولكل زعيم غايات وأهداف مختلفة، أدى بهم ذلك إلى نشوء صراعات كثيرة فيما بينهم، وكثيراً ما تثور بينهم الحروب لأتفه الأسباب[1]، مما أوقع العرب في ويلات ومآسي لا حدود لها، فضعفوا بذلك، وتحولوا إلى أدوات للقوى الخارجية من الفرس والروم، الذين جعلوا يستغلون بعض العرب لحماية حدودهم من غارات الخصوم، وكان من نتيجة هذه الحالة أن أصبح العرب على هامش المجتمع الدولي.

ولما كثرت المآسي والمصائب فيهم واشتدت الويلات الناشئة عن تلك الحال بينهم، أرسل الله تعالى محمداً ﷺ ليخرجهم به من الصراعات الداخلية والاختلافات القبلية والشرك بالله تعالى، إلى توحيد الله تعالى ووحدة الصف، ليجعل منهم أمة مؤمنة قوية تغير المنكر في الأرض بما أنزل الله تعالى على محمد ﷺ من القرآن الكريم ﴿هُوَ ٱلَّذِى يُنَزِّلُ عَلَىٰ عَبْدِهِۦٓ ءَايَٰتٍۭ بَيِّنَٰتٍ لِّيُخْرِجَكُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ ۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ بِكُمْ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿٩﴾﴾[2].

القرآن سرّ قوة المسلمين:

فلما التزم المؤمنون بالأحكام الاعتقادية والأحكام والتشريعية التي تضمنها القرآن الكريم ملتفين حول قيادتهم المتمثلة بالنبي ﷺ، فتح النبي ﷺ بهم أرجاء

---

(١) كحرب البسوس التي كان سببها أن ناقة لقبيلة رعت في أرض لقبيلة أخرى فقتلها صاحب الأرض فانتصرت لها قبيلتها ووقعت الحرب بينهما، انظر تفصيل ذلك في: الكامل في التاريخ لابن الأثير ح ١ ص ٣١٢. وكحرب داحس والغبراء التي وقعت في الجاهلية أيضاً لأسباب مماثلة. وغير ذلك كثير.

(٢) الحديد آية ٩.

الجزيرة العربية في غضون ثلاث وعشرين سنة، ثم بدأ ﷺ في أواخر حياته الإعداد للفتوحات الخارجية فكانت غزوة تبوك أول حملة عسكرية لمواجهة الروم خارج الجزيرة العربية، وبعد وفاته ﷺ تابع أصحابه الفتوحات شرقاً وغرباً حتى أسقطوا دولتي فارس والروم التي اجتمع كبار قياديها السياسيين والعسكريين وبحثوا في أسباب قوة المسلمين الخارقة فوجدوا أن الإيمان بالقرآن الكريم والعمل به هو سبب قوتهم. وهو القائل ﴿وَٱعْتَصِمُوا۟ بِحَبْلِ ٱللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا۟﴾[1]، ﴿وَلَا تَنَٰزَعُوا۟ فَتَفْشَلُوا۟ وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ﴾[2].

محاولتهم جعل القرآن سبب ضعف الأمة:

عمد أعداء الأمة إلى محاولة إفساد دور القرآن الكريم في المسلمين عبر محاولة تحريف ألفاظه في المرحلة الأولى وعبر محاولة تحريف معانيه في المرحلة الثانية.

أولاً: أما محاولة تحريف ألفاظ القرآن: فكانت من خلال استغلال الاختلاف حول القراءة بالأحرف السبعة القرآنية[3] بين بعض أصحاب النبي ﷺ والتابعين كما حصل في أرمينيا مما حَمَلَ عثمان بن عفان رضي الله عنه، على جمع أصحاب النبي ﷺ من ذوي الرأي والمشورة فأخبرهم واستشارهم، فاتفقوا على جمع الناس على قراءة واحدة بحرف قريش ولغتها وهي التي توفى عنها رسول الله ﷺ فكتبها عثمان رضي الله عنه في مصاحف ووزعها إلى المدن الرئيسية الإسلامية وأحرق ما عداها من المصاحف. وأغلق الباب بذلك على أصحاب الفتنة والدسّ.

ثانياً: وأما محاولة تحريف معاني القرآن الكريم: فكانت من خلال إثارة البحث في الآيات المتشابهات منه بالسعي إلى الخوض في كيفيات هذه المتشابهات وعلى رأسها آيات الصفات الإلهية[4] التي أوجدها الله تعالى في القرآن لكشف ما في نفوس المندسين في أوساط الأمة من المتظاهرين بالانتساب إليها كما قال

---

(١) آل عمران آية ١٠٣.
(٢) الأنفال آية ٤٦.
(٣) وقد كانت القراءة بها رخصة في أول الأمر.
(٤) ومحلّ التشابه في آيات الصفات هو كيفيات هذه الصفات، فلا أحد يمكنه أن يعرف ذلك منها، لأن الله تعالى يقول (وما يعلم تأويله إلا الله) آل عمران آية ٧.

تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ مِنْهُ ءَايَٰتٌ مُّحْكَمَٰتٌ هُنَّ أُمُّ ٱلْكِتَٰبِ وَأُخَرُ مُتَشَٰبِهَٰتٌ ۖ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَٰبَهَ مِنْهُ ٱبْتِغَآءَ ٱلْفِتْنَةِ وَٱبْتِغَآءَ تَأْوِيلِهِۦ﴾[1].

وقد أرشدنا النبي ﷺ إلى كيفية التعامل مع هؤلاء فقال بعد قراءة هذه الآية: «فإذا رأيتم الذين يتبعون ما تشابه منه فأولئك الذين سمى الله فاحذروهم»[2]، والمقصود بهم المنافقون بدليل قوله تعالى: ﴿وَإِذَا رَأَيْتَهُمْ تُعْجِبُكَ أَجْسَامُهُمْ ۖ وَإِن يَقُولُوا۟ تَسْمَعْ لِقَوْلِهِمْ ۖ كَأَنَّهُمْ خُشُبٌ مُّسَنَّدَةٌ ۖ يَحْسَبُونَ كُلَّ صَيْحَةٍ عَلَيْهِمْ ۚ هُمُ ٱلْعَدُوُّ فَٱحْذَرْهُمْ﴾[3]، وفي رواية أخرى: «ولا تجالسوهم»[4]، وفي رواية ثالثة (أولئك الخوارج)[5].

وقد عمل أصحاب رسول الله ﷺ بذلك من بعده، فحين دس اليهود رجلاً إلى المدينة المنورة وهي عاصمة الخلافة الإسلامية يدعى ضُبيع بن عسل، فدخل المدينة المنورة وجعل يبحث في المتشابهات فأحس به أصحاب رسول الله ﷺ فرفعوا أمره إلى عمر بن الخطاب رضي الله عنه، فأدرك الخطة وجمع له ثلاثة عراجين من سعف النخل ودعا أصحاب رسول الله ﷺ من أهل الشورى ثم استدعاه فلما دخل عليه سأله من الرجل؟ فقال: عبد الله ضبيع، فقال عمر: وأنا عبد الله عمر جئت تسأل عن المتشابهات وقد نهاك الله عنها؟!، ثم أخذ عرجوناً من هذه العراجين وجعل يضربه على رأسه حتى دمى رأسه فقال: كفى يا أمير المؤمنين فقد والله ذهب عني الذي كنت أجد[6]، ثم أمر به عمر بن الخطاب فأعيد إلى حيث جاء من البصرة وأمر والي البصرة أن يمنع الناس من مجالسته، لمنع انتشار فتنته فيهم.

---

(١) آل عمران آية ٧.

(٢) رواه البخاري ح ١ ص ٤٢ كتاب التفسير من سورة آل عمران عن عائشة مرفوعاً، ورواه مسلم، انظر مختصر مسلم للمنذري ح ١ ص ٣٢٥ كتاب التفسير، رقم الحديث ٢١٢٦.

(٣) المنافقون آية ٤.

(٤) رواه ابن جرير وغيره، انظر فتح القدير للشوكاني ح ١ ص ٣١٨.

(٥) رواه عبد بن حميد وعبد الرزاق وأحمد وابن المنذر وابن أبي حاتم والطبراني والبيهقي عن أمامة مرفوعاً، انظر فتح القدير للشوكاني ح ١ ص ٣١٩.

(٦) روى هذه القصة الدارمي وابن عساكر ونصر المقدسي في الحجة عن سليمان بن يسار، انظر فتح القدير للشوكاني ح ١ ص ٣١٩. القرطبي ح ٤ ص ١٤. جمع الفوائد ح ١ ص ٤٨ كتاب العلم. رقم الحديث ٢٨٢.

واستمر الأمر على ذلك إلى أن كان العهد العباسي حيث دس اليهود رجلاً آخر في حلقة الإمام مالك في المسجد ليثير البحث في هذه المتشابهات من جديد فسأل الإمام مالك قائلاً: يا أبا عبد الله، الله تعالى يقول في كتابه: ﴿ٱلرَّحْمَٰنُ عَلَى ٱلْعَرْشِ ٱسْتَوَىٰ ۝٥﴾[1] كيف استوى؟ فأدرك الإمام مالك الهدف المشبوه الكامن وراء هذا السؤال فأطرق طويلاً وأخذته الرحضاء ثم نظر إليه وقال: الاستواء معلوم والكيف مجهول والإيمان به واجب والسؤال عنه بدعة، أراك صاحب بدعة[2]، ثم قال لتلاميذه أخرجوه، فأخرجوه بين صافع ولاكم وراكل حتى رموه خارج المسجد، فخمدت الفتنة مرة ثانية، حتى كان العهد العباسي واختلف الأمر بعد ذلك.

تحليل الصراع العقائدي
في العهد العباسي

بعد أن حاول أعداء الأمة ـ وكثير منهم كانوا سادة وقادة في شعوبهم ـ ضربها من داخلها على أيدي أبنائها المخدوعين حين رأوا ما وصلت إليه هذه الأمة من القوة وعرفوا أن سر قوتها هو وحدتها، وسبب وحدتها هو القرآن الكريم وفشلوا في إيجاد االخلاف على ألفاظه كما قلنا. حاولوا إفساد عنصر القوة هذا عبر إثارة الخلافات حول قضية عقائدية غيبية تتعلق بمعانيه وهي صفات الله تعالى، فكان أن خططوا للوصول إلى **مركز القرار السياسي والقوة المعنوية في الأمة** وهي بغداد عاصمة الخلافة العباسية، فاستغلوا ـ وكانوا من كبار زعماء الفرس والروم ـ ظاهرة التسامح الإسلامي عبر عقد الذمة، فتظاهر بعضهم بالإسلام بينما دخل البعض الآخر في عقد الذمة، وأظهروا المحبة والمودة والانسجام مع المسلمين من خلال إظهار مَنْ أسلم منهم الالتزام ببعض الأحكام التشريعية حتى يأمنهم الناس، فقربهم الخلفاء العباسيون للاستفادة من طاقاتهم ومعارفهم ومنهم بشر المريسي، فارتقوا حتى أصبح الكثير منهم حاشية للخلفاء، وقد تمكنوا من إغراء الخليفة

---

(١) طه آية ٥.

(٢) رواه اللالكائي عن الإمام مالك، وهو مروي أيضاً عن أم سلمة زوج النبي ﷺ فيما رواه عنها ابن مردويه انظر فتح القدير للشوكاني ح ٢ ص ٢١٢ عند تفسير الآية (ثم استوى على العرش) الأعراف آية ٥٤.

هارون الرشيد بترجمة الكتب اليونانية، **لتصبح ميزان التفكير والحكم على القضايا في المجتمع الإسلامي** تحت ستار ضرورة **الانفتاح** على الأمم الأخرى وتحصيل ما لديها من علوم وثقافة، فقام هارون الرشيد بتشكيل لجان للترجمة، وكان يعطي على ترجمة الكتاب مثل وزنه ذهباً، حتى انتشرت هذه الكتب اليونانية المترجمة إلى العربية في أوساط المسلمين الذين أعجبوا بها وفتنوا بمحتوياتها حتى أصبحت هي الميزان ومحل الاعتبار وصار الرجوع إليها هي بدلاً من الميزان الشرعي الذي تركه لنا رسول الله ﷺ، مما شكل خطراً على العقيدة الإسلامية والتصور الإسلامي، فأحس هارون الرشيد بذلك الخطر وانقلب على هؤلاء الذين أغروه بالترجمة ولاحقهم ففرّ الكثير منهم من سطوته وعلى رأسهم بشر المريسي[1]، ولما آلت الخلافة إلى المأمون بن الرشيد ظهر المريسي ومن معه من المعتزلة كأحمد بن أبي دُؤاد وثمامة بن الأشرس. وتقرّبوا من المأمون وتابعوا مسيرة الدعوة إلى الفكر الاعتزالي تحت غطاء التوحيد والتنزيه[2]، ولكن بمقتضى العقل البشري وليس باعتماد النص الشرعي، وقد تمكنوا من إغراء المأمون بمخالفيهم من المحدثين من أهل السنة باتهامهم بالتجسيم والتشبيه، فجعل يلاحقهم ويعاقبهم، فدب الصراع بين الطرفين في العاصمة الإسلامية بغداد، فهاجر بعضهم وترخص البعض الثاني[3] بينما واجه البعض الثالث مؤامرة المعتزلة، مما أدى إلى إعدام البعض منهم[4] واعتقال وتعذيب البعض الآخر[5] وعلى رأسهم الإمام أحمد بن حنبل رضي الله عنه، الذي راح أحمد بن أبي دؤاد المعتزلي مرات عديدة يغري المأمون ثم بعده المعتصم بقتله للقضاء على المعارضين، حتى أوشك المأمون أن يفعل ذلك، وأما

---

(١) حتى صار هارون الرشيد يقتل من يقول بخلق القرآن. انظر البداية والنهاية ح ١٠ ص ٢١٥، وانظر ص ٢٧٥ أيضاً.
وقال فيه إبن كثير: كان أحد من أضل المأمون. اهـ البداية والنهاية ح ١٠ ص ٢٨١ وص ٣٣١.

(٢) نفس المصدر ص ٣٣٢.

(٣) من أمثال: محمد بن سعد كاتب الواقدي ويحيى بن معين وزهير بن حرب وغيرهم كثير، انظر البداية والنهاية ح ١٠ ص ٢٧٢.

(٤) كالإمام أحمد بن نصر الخزاعي وغيره. نفس المصدر ص ٣٣٥.

(٥) كالإمام يوسف البويطي صاحب الإمام الشافعي ونعيم بن حماد الخزاعي. ومحمد بن نوح الذي كان مع الإمام أحمد حين سيق إلى الخليفة المأمون في الرقة بالقيود، وقد مات محمد بن نوح في الطريق وصلّى عليه الإمام أحمد. انظر البداية والنهاية ح ١٠ ص ٣٣٥.

المعتصم فقد امتنع عن ذلك خشية الفتنة لما كان للإمام أحمد من كثرة الاتباع، واستمر التعذيب والملاحقة للمعارضين إلى عهد الخليفة الواثق بالله العباسي حيث خفف من الوطأة على المحدثين من أهل السنة، بعد أن لفت نظره بعض حاشيته والمقربين إليه من خصوم المعتزلة الذين لم يظهروا ما في نفوسهم حتى لا يؤاخذوا بذلك، فأخرج الواثق الإمام أحمد من السجن وترك ملاحقة المعارضين للمعتزلة.

ولما كان عهد المتوكل وقد خف الضغط عن أهل السنة قبله في أواخر عهد الواثق تمكن بعضهم من الوصول إلى المتوكل وبيان حال أهل السنة وتوضيح رأيهم فيما ذهب إليه المعتزلة من القضايا الاعتقادية بعد أن كان المعتزلة يمنعونهم من ذلك، فانشرح صدره لذلك وقلب الأمر على المعتزلة، فأصدر الخليفة أمراً بملاحقتهم ومعاقبتهم فانكشف حالهم للناس.

وتبين أن أصولهم تنتهي إلى اليهود والزنادقة من خلال سلسلتهم[1] التي كشفها المحدثون عن ارتباط أركان الاعتزال بعبد الله بن سبأ اليهودي، فقد أخذ بشر المريسي[2] وثمامة بن الأشرس[3] وأحمد بن دؤاد[4] فكرة الاعتزال وأهمها القول بخلق القرآن عن الجهم بن صفوان[5] الذي أخذها عن الجعد بن درهم[6] الذي

---

(١) أشار إلى هذه السلسلة إبن الأثير في الكامل في التاريخ ح ٥ ص ٢٩٤. وإبن كثير في البداية والنهاية ح ٩ ص ٣٥٠.

(٢) كان أبوه يهودياً، وعندما قال بخلق القرآن طلبه الخليفة الرشيد وحلف ليقتلنّه فتوارى عن الأنظار توفي سنة ٢١٨هـ انظر ضحى الإسلام ح ٣ ص ٢ والأعلام ح ٢ ص ٥.

(٣) قال فيه الشهرستاني: كان جامعاً بين سخافة الدين وخلاعة النفس. اهـ الملل والنحل ح ١ ص ١٠٥ وكان يدفع المأمون إلى تبني آراء المعتزلة توفي سنة ٢١٣. انظر ضحى الإسلام ح ٣ ص ١٥٣.

(٤) قال فيه الذهبي: كان جهمياً بغيضاً حمل الخلفاء على امتحان الناس بخلق القرآن. توفي سنة ٢٤٠هـ انظر الأعلام ح ١ ص ١٢٤ وقال فيه ابن كثير: إنه ضال مضلّ. اهـ البداية والنهاية ح ١٠ ص ٣٢٠.

(٥) قال فيه الذهبي: ضال مبتدع زرع شراً عظيماً. قتله والي خراسان على يد سالم بن أحوز في مدينة مرو سنة ١٢٨هـ انظر البداية والنهاية ح ٩ ص ٣٢٠ الأعلام ح ٢ ص ١٤١.

(٦) قال فيه الذهبي: مبتدع ضال اهـ أمر بقتله الخليفة هشام بن عبد الملك فأعدمه خالد بن عبد الله القسري يوم عيد الأضحى سنة ١١٨هـ كما قال البخاري والبيهقي وغيرهما: وانظر البداية والنهاية ح ٩ ص ٣٥٠. الأعلام ح ٢ ص ١٢٠.

أخذها عن أبان بن سمعان[1] ثم هو عن طالوت[2] ابن أخت لبيد عن لبيد بن الأعصم[3] عن عبد الله بن سبأ[4]، وهؤلاء كلهم ما بين يهودي وزنديق، أدى ما طرحوه في الأمة من هذه الفكرة إلى تدميرها عبر تلك الخلافات حتى أضعفت الدولة العباسية، فأغرى بها ذلك الضعف المغول والتتار فهاجموا بلاد المسلمين فدمروها حتى وصلوا إلى بغداد عاصمة الخلافة العباسية فدمروا فيها الحجر وقتلوا فيها البشر وأحرقوا فيها الشجر، وبلغ عدد القتلى فيها أكثر من مليون إنسان.

وكان من أبرز من سقط قناعه أيضاً من أولئك المعتزلة الزنادقة الأديب ابن الراوندي[5] الذي ألف كتاباً أنكر فيه نبوءة محمد ﷺ، وكتاباً آخر استخف فيه بالقرآن ووصفه بضعف التركيب والبلاغة، وألف كتاباً ثالثاً فضل فيه اليهودية على الإسلام.

الميزان في الصفات
وخطر الوزن بغيره

من طبيعة البشر أنهم يختلفون باختلاف قدراتهم العقلية وأحوالهم النفسية، فكان لا بد من وجود موازين تمنع من وقوع النزاع والصراع بين الناس عند الاختلاف حين يعودون إليها، وتنقسم هذه الموازين إلى ثلاثة: ـ

---

(١) ويسمى أيضاً بيان بن سمعان. قيل إنه ادعى النبوة وأنه نسخ شريعة محمد ﷺ ثم ادعى الربوبية على مذهب الحلولية. انظر الفرق بين الفرق ص ٢٢٧.

(٢) قال فيه ابن الأثير: كان زنديقاً فأفشى الزندقة. وأنه أول من صنف كتباً في خلق القرآن. انظر الكامل في التاريخ ح ٥ ص ٢٩٤. حوادث سنة ٢٤٠.

(٣) وهو اليهودي الذي سحر رسول الله ﷺ كما في صحيح مسلم وكان يقول بخلق القرآن. انظر الكامل في التاريخ ح ٥ ص ٢٩٤.

(٤) كان قد تظاهر بالإسلام في عهد عثمان وأثار الناس عليه وادعى في علي بن أبي طالب الألوهية وكان يقول: إن رسول الله ﷺ أوصى لعلي بالخلافة لكن الصحابة جحدوا ذلك. قال فيه ابن حجر انه من غلاة الزنادقة، توفى سنة ٤٠هـ انظر لسان الميزان ح ٣ ص ٢٨٩. الأعلام ح ٤ ص ٨٨.

(٥) قال فيه ابن كثير: أحد مشاهير الزنادقة، ويقال إنه قتل وصلب سنة ٢٩٨هـ انظر البداية والنهاية ح ١١ ص ١١٢.

أولاً: ـ ميزان تجاري: ـ وسيلته الآلة الخاصة بوزن الأشياء أو كيلها.

الثاني: ـ ميزان عقلي: ـ وسيلته الحواس الخمس: السمع والبصر والشم والذوق واللمس.

الثالث: ـ ميزان شرعي: ـ وسيلته الوحي السماوي: كتاب وسنة.

وقد قال تعالى: ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ وَأَنزَلْنَا الْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ مَن يَنصُرُهُ وَرُسُلَهُ بِالْغَيْبِ إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ ﴿٢٥﴾﴾[1].

فكما أن الناس إذا اختلفوا في قضية تجارية ورجعوا إلى الميزان التجاري انحسم خلافهم، ولو اختلفوا في قضية عقلية ورجعوا إلى حواسهم انحسم خلافهم، كذلك إذا اختلف الناس في قضية شرعية ورجعوا إلى النص الشرعي الصحيح الصريح انحسم خلافهم فيها أيضاً.

ولهذا فقد أمر الله تعالى بالرجوع إلى النص الشرعي عند الاختلاف فقال: ﴿فَإِن تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ﴾[2]، وفي الحديث الصحيح: «تركت فيكم ما إن تمسكتم بهما لن تضلوا بعدي أبداً: كتاب الله وسنتي»[3].

ولما كان تنزيه الله تعالى عباده لقوله تعالى: ﴿سَبِّحِ اسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَى ﴿١﴾﴾[4]، أي نزه الله تعالى عن العيوب والنقائص، والعبادة إنما تؤخذ عن الله تعالى فيما يتعلق بعمل القلب، كما تؤخذ عن الله تعالى فيما يتعلق بعمل الجوارح، كالصلاة فإن الصلاة عبادة ولا يجوز أداؤها إلا على الوجه الذي بيَّنه رسول الله ﷺ، كذلك فإن تنزيه الله تعالى وإثبات الصفات له عبادة فلا يجوز أداؤها إلا كما يريد الله

---

(١) الحديد آية ٢٥.

(٢) النساء آية ٥٩.

(٣) رواه مالك في الموطأ بلاغاً مرفوعاً بلفظ (تركت فيكم أمرين لن تضلوا ما تمسكتم بهما كتاب الله وسنة رسول الله ﷺ) جمع الفوائد ح ١ ص ٢٧ كتاب الإعتصام بالكتاب والسنة. رقم ١٢٤.

(٤) الأعلى آية ١.

تعالى وكما بيَّنه رسول الله ﷺ. وليس كما يريد أرسطو وأفلوطين وفيثاغورس وغيرهم من الفلاسفة والمناطقة.

فصفات الله تعالى يجب أن تفهم بمقتضى النص الشرعي ولا يجوز الاحتكام فيها إلى العقل البشري لأن ذلك يؤدي إلى الاختلاف عليها، الذي يجر إلى الصراع والنزاع، لأن العقول متفاوتة ويترتب على تفاوتها الاختلاف في الفهم، وحين تكون القضية إيمانية تتعلق بصفات الله تعالى فإن الاختلاف فيها يؤدي إلى أن يكفر الناس بعضهم بعضاً.

وقد حذر النبي ﷺ من ذلك فقال في الحديث الصحيح: «لا ترجعوا بعدي كفاراً يضرب بعضكم أعناق بعض»[1].

ولما كانت ذات الله تعالى من الغيب المطلق فليس في قدرة الإنسان أن يتعرف إليها بعقله لقوله تعالى: ﴿وَلَا يُحِيطُونَ بِهِۦ عِلْمًا﴾[2]، فإن الخوض في هذه القضية بمقتضى العقل البشري حينئذ سيفضي بصاحبه إلى الحيرة والضياع ولهذا فقد نهى الله تعالى عن الخوض في صفاته بعيداً عن النص الشرعي رأفة بهذا الإنسان ورحمة به، ووضع القاعدة العامة للتعامل مع صفات الله تعالى فقال: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ ۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾[3].

وقد كان أصحاب رسول الله ﷺ يعملون بهذه القاعدة فلم يقع فيما بينهم في هذه المسألة خلاف أو صراع لأنهم استسلموا للنص الشرعي فانسجمت معه فطرتهم، ولما خرج الناس عن مقتضى هذه القاعدة في القرن الثالث وقع الاختلاف والصراع فيما بينهم وحلّ بهم الاضطراب النفسي بسبب تناقض ما ذهبوا إليه بمقتضى عقولهم مع ما آمنوا به بمقتضى فطرتهم.

وعندما وقع العديد من العلماء في مخالفة هذه القاعدة الشرعية أصابتهم

---

(١) رواه البخاري ومسلم وابن ماجه عن جرير بن عبد الله البجلي مرفوعاً. انظر فيض القدير ح ٦ ص ٣٩٤ رقم ٩٧٦٧.

(٢) طه آية ١١٠.

(٣) الشورى آية ١١.

الحيرة وتملكهم الضياع فلما عادوا إليها اطمأنوا بها، من هؤلاء: الإمام أبو الحسن الأشعري تـ ٣٣٤هـ، والإمام الجويني تـ ٤٧٨هـ، والإمام الغزالي تـ ٥٠٥هـ، والإمام الرازي تـ ٦٠٦هـ، وهكذا يكون الالتزام بهذه القاعدة سبباً في السلامة والخروج عنها يكون سبباً في العطب.

obeikandl.com